حسن الظن والتوكل على الله

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

إنَّ الْمُؤمنَ حينَ ينوي أن يقومَ بالعملِ الواجبِ عليهِ، يَتوجَّهُ بمعرفتِهِ اليقينيَّةِ توجُّهًا خالصًا إلى مولاهُ سائلاً النَّجاحَ والتَّوفيقَ، مُحقِّقًا إخلاصَهُ في دعائِهِ إثباتًا وعبادَتِهِ إفرادًا، فيكونُ قلبُهُ وعقلُهُ مُتَعلِّقَينِ بذكرِ اللهِ وخاشعَينِ أمامَهُ، كما وردَ عن الإمامِ علي الرِّضا (علينا سلامُهُ) أنَّ أميرَ الْمُؤمنين الإمامَ علي (م) كانَ يقول: (طُوبَى لِمَن أخلصَ للهِ العبادةَ والدُّعاءَ، ولم يَشغَلْ قَلبَهُ بمَا تَرَى عيناهُ، ولم يَنْسَ ذِكْرَ اللهِ بمَا تَسمَعُ أذناهُ، ولم يَحزَنْ صَدرُهُ بما أعطِيَ غيرُهُ)، فهو منشَغِلٌ دائمًا بعبادَةِ اللهِ الحاضرِ الْمَوجودِ، لا تغرُّهُ الْمَظاهرُ الدُّنيويَّةُ، ولا تَشغَلُهُ الْمُغرَياتُ، ولا تَستَميلُهُ أحاديثُ الهوى والغِيبَةِ والنَّميمةِ، ولا يَحسُدُ غيرَهُ على نعمةٍ أعطاها اللهُ له، بل يَحمدُ اللهَ ويشكرُهُ على ما مَنَّ به عليه من معرفتِهِ، فلا يأخذُهُ هوى التَّشبيهِ الْمُردي والتَّعطيلِ الْمُبعِدِ عن رحمةِ اللهِ.

ونتيجةَ هذا الخشوعِ القلبيِّ والتَّعلُّقِ العقليِّ الذي يُحقِّقُهُ، يُسلِّمُ أمرَهُ للهِ مُقبلاً على العملِ الواجبِ ومُعتَصِمًا باللهِ، فيَعصِمُهُ اللهُ من كلِّ خطأ أو أذى أو بلاءٍ لقولِ الإمامِ جعفر الصَّادقِ (علينا سلامُهُ): (أيُّمَا عبدٌ أقبَلَ قِبَلَ ما يُحبُّ اللهُ عزَّ وجَلَّ أقبلَ اللهُ قِبَلَ ما يُحِبُّ، ومَن اعتصَمَ باللهِ عَصَمَهُ اللهُ، ومَنْ أقبلَ اللهُ قِبَلَهُ وعَصَمَهُ لم يُبَالِ لو سَقَطَتِ السَّماءُ على الأرضِ، أو إنْ كانت نَازِلَةٌ نَزَلَتْ على أهلِ الأرضِ فَشَمَلَتْهُم بَلِيَّةٌ، كانَ في حزبِ اللهِ بالتَّقوى من كلِّ بليَّةٍ، أليسَ اللهُ عزَّ وجَلَّ يقول: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ).

هذا الْمَقامُ الأمينُ يُمَثِّلُ الحمايةَ الإلهيَّةَ للمؤمنِ الْمُوَحِّدِ الْمُحسنِ ظنَّهُ باللهِ تعالى، لأنَّ الْمُؤمنَ دائمًا حَسَنُ الظَّنِّ باللهِ بسببِ إيمانِهِ التَّوحيديِّ الخالصِ، على عكسِ الذينَ تَلَوَّثُوا برذائلِ التَّشبيهِ والتَّعطيلِ فَأَرْدَتْ بهم إلى الشَّكِّ والشِّركِ الخَفِيِّ أحيانًا والكفرِ والإنكارِ الخفيِّ أحيانًا أخرى، ممَّا جعلَ أنفسَهُمُ الْمُلوَّثةَ تُسيءُ الظَّنَّ باللهِ لجهلِها وخُبثِها، ولهذا قال الإمامُ محمَّد الباقرُ (علينا سلامُهُ): (وَجَدْنا في كتابِ الإمامِ عليٍّ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِهِ وسلَّمَ قالَ وهوَ على مِنبَرِهِ: والذي لا إلهَ إلاَّ هُوَ، ما أُعطِيَ مؤمنٌ قَطُّ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ إلاَّ بحُسنِ ظَنِّهِ باللهِ ورَجَائِهِ لَهُ وحُسنِ خُلُقِهِ والكَفِّ عن اغتيابِ الْمُؤمنينَ. والذي لا إلهَ إلاَّ هوَ لا يُعَذِّبُ اللهُ مؤمنًا بعدَ التَّوبَةِ والاستغفارِ إلاَّ

بسُوءِ ظَنِّهِ باللّهِ وتقصِيرِهِ مِن رَجَائِهِ وسُوءِ خُلُقِهِ واغتيابهِ للمؤمنينَ. والذي لا إلهَ إلاَّ هوَ لا يَحسُنُ ظَنُّ عبدٍ مؤمنٍ باللّهِ إلاَّ كانَ اللّهُ عندَ ظَنِّ عبدِهِ الْمُؤمنِ، لأنَّ اللّهَ كريمٌ، بيدِهِ الخيراتُ، يَستَحْيي أن يكونَ عبدُهُ الْمُؤمنُ قد أحسنَ بهِ الظَّنَّ ثمَّ يُخلِفُ ظَنَّهُ ورَجاءَهُ، فأَحْسِنُوا باللّهِ الظَّنَّ وارغَبُوا إليهِ).

هـذا العمـلُ الحقيقيُّ عبـادةً، الْمُتَوَّجُ بـاللجوءِ إلى اللّهِ والإقبالِ عليهِ وحســـنِ الظَّنِّ به إثباتًا والإخلاصِ لَهُ إفرادًا، هو ما يوضـــِّحُ مفهومَ التَّوكُّلِ على اللّهِ تعالى، وقد قال تعالى دعوةً منه للتَّوكُّلِ عليه: (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)، ولهذا التَّوكُّلِ درجاتٌ ذكرها الإمام موسـى الكاظم (علينا ســـلامُهُ) في تفســـيرِهِ للآيةِ قائلاً: (التَّوكُّلُ على اللّهِ درجاتٌ: أعلاها أن تتوكَّلَ على اللّهِ في أمورِكَ كلِّها، فَمَا فعلَ بكَ كنتَ عنه راضـيًا، تعلمُ أنَّه لا يَأْلُوكَ خيرًا وفضـلاً، وتعلمُ أنَّ الحُكْمَ في ذلكَ لَهُ، فتوكَّلْ على اللّهِ بتفويضِ ذلكَ إليهِ وَثِقْ بهِ فيها وفي غيرِها).

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد